وكرامة ؛ ولا يتخذون منه ستارا للدعاية ، ولكن يتخذونه درعا للكفاح في سبيل الحق والاستعلاء

أما دور الطنين الذي يعلن بالاسلام في هذه الأيام ؛ وأما المتجرون بالدين في ربوع الشرق الأوسط، وأما الذين يسترزقون من اللعب به على طريقة الحواة ، أما هؤلاء جميعا فهم الزبد الذي يذهب جفاء عندما يأخذ الله طريقه، وسيأخذ الله طريقه سريعا ، أسرع مما يظن الكثيرون ، إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . « وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم . وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدونني لا يشركون بي شيئا » . . . صدق الله العظيم

سيد قطب

٣٨ ـ ٥٢

شخصية الرشيد

على ضوء علم النفس الحديث

للاستاذ أنور الجندي

يقف « هارون الرشيد » على رأس القمة التي بلغتها الدولة العباسية ، بل التي بلغها تاريخ الإمبراطورية الإسلامية كلها .. ، هذا المجد الذي لم يلبث طويلا بعد ذلك ، والذي كان خلال عهد المأمون امتدادا للدفعة القوية التي بلغها الملك في عهد الرشيد . وحسبك بالخليفة الذي روى عنه أنه قال للسحابة المارة « أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك »

اختلف المؤرخون حول الرشيد اختلافا شديدا ، فذهب بعضهم إلى أنه كان يصلي مائة ركعة كل يوم ، وأنه كان يتصدق بمائة ألف درهم ؛ وأنه كان يحج عاما ويغزو عاما .. وذهب البعض الآخر إلى القول بأن قصره كان صورة صحيحة لقصص « ألف ليلة » ، وأنه كان مرحاً طروبا يقيم مجالس الغناء والأنس تنتظمها أكواب الراح ، وأنه كان يقضي غالب وقته بين الغناء والموسيقى ، والمغنيات والقيان

على أنه ليس من الغريب أن يجمع الرشيد بين الصورتين المتباعدتين اللتين يجمعهما دلالة الشخصي القوي الحيوية، الدافق الشباب ، البالغ الفتوة

وليس على الرشيد من بأس على ضوء طبعه هذا من أن يعيش هاتين الحياتين معا، ويمزجهما على نحو من الاعتدال فهما ؛ قريبتان جدا ، يلتقيان دائما ، إذا بعدت عنهما مبالغات القصاص وأحاجي الرواة

وليس على الرشيد من ضير أن يعقد مجالسه فيستمع إلى السمر والغناء والموسيقى .. ، ولا يمنعه ذلك من أن يصلي لله مائة ركعة ؛ وأن يمضي إلى الحج عاما والغزو عاما

.. وكل وقائع حياة الرشيد الصحيحة التي بين أيدينا ، تدل على أنه أمضى حياة جادة كل الجد فقد حفلت حياته القصيرة بالغزو والجهاد ، فما كان ينتهي من غزاة حتى يفترع أخرى ».. كذلك كان منذ شبابه الغض إلى اليوم الأخير من حياته

وأبرز ظاهر حياته أنه رجل حرب وقتال ، أشربت روحه بالجهاد وقيادة الجيوش ونضال العدو ، وكانت أغلب غزواته في أرض الدولة البيزنطية ، فلما ولي الملك نظم الشواتي والصوائف وحرض على إرسالها ، ثم خرج بنفسه إلى قتال الروم بعد أن نقضوا المعاهدة ، ومنعوا الجزية

وقد كان حفيا بمنازلة الخصوم والأعداء ، لا يهدأ ولا يستريح إلا لنصر يكسبه من وراء نصر ، فلا يلبث أن ينتهي من صراع الأعداء على حدود الدولة البيزنطية حتى يعاود الصراع مع العلويين الذين يظهرون هنا أو هناك محاولين الفتنة أو منازعين على الملك ، ... وهو في هذا كله صلب العزيمة قوي العود ، على غاية من البسالة والحيوية ..، وهي صفات لا تجعل صاحبها مجال في صف المنقطعين للهو أو العاكفين على الهوى ..

وفي هذا يقول الشاعر :

فمن يطلب لقاءك أو يرده ... فبالحرمين أو أقصى الثغور

وقد بدت هذه النفسية المصارعة الجارفة . . على أوضح صورها وأقواها حين استبان له غدر البرامكة . . فصرعهم في ليلة واحدة ، على أسلوب غاية في الجرأة والحسم والبتر ، ولم يقبل فيهم شفاعة ، حتى شفاعة ظئره التي أرضعته وربته .. وكانت عنده في مقدمة الشافعين المشفعين

وليس شك أن هذا التصرف الجري بالنسبة للبرامكة ، .. بعد أن أطلق أيديهم في أمور الملك سبعة عشر عاما، حتى بلغوا مكانا عاليا ، واستطار اسمهم ، وعلا صيتهم . . وفي الوقت الذي كان يعلم أنهم هم الذين أوصلوه إلى الملك ومكنوا له منه ، لدليل أكيد على قوة نفسية الرشيد ، قوة تزري بما عرف عن جده المنصور.. وإن ظلت نفس الرشيد تحتفظ بطابعها الخالص من السماحة والرقة واللين والمرح والاشراق

. .. وآية ذلك الذي نذهب إليه في نفسية الرشيد ، أنه في رحلته الأخيرة إلى خراسان ، حمل إليه أحد الخوارج ، وكان في أشد حالات المرض ، وفي سكرات الموت ، فأمرهم بقتله أمامه ، وظل يملأ نظره من دمه المهدر ، وهو مسجى على وشك أن يبلغ الأجل من علته ..

وكان الرشيد خلال حياته التي لم تتجاوز الخامسة والأربعين، حامل لواء الحضارة الاسلامية في الشرق — بالإضافة إلى منصبه كخليفة للامبراطورية — ، فقد احتضن الثقافة والفن ، وشجع رجال الشعر والموسيقى والغناء .. وأفسح لهم ومكنهم من الابتكار والتجديد والإبداع ، وعنى بالتأليف ، وأمان الفقهاء ، وفتح لهم أبواب البحث والقضاء ، وعقد لهم مجالس للبحث والمساجلة والمناقشة في مختلف المسائل

.. واتصل بعميد الغرب في عهده ، شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا وإيطاليا .. وأرسل إليه وفداً ..، وأهدى إليه مفاتيح بيت المقدس ، علامة على الود بين الغرب والشرق، وبين الاسلام والمسيحية

° ° °

ثلاث نجوم : كانت تدور في فلك الرشيد ، أمه الخيزران ، وزوجه زبيدة ، ووزيره جعفر

أما الخيزران فقد كرهت الهادي ، لأنه كان يصرفها عما تبغي من مظاهر السلطة والنفوذ ، وأما لرشيد فقد أباح لها ما تشاء منه ، وإليها يرجع بعض الفضل في أن يقفز إلى الخلافة، قبل أن يجيء دوره في ترتيب الوراثة وولاية العهد

وأما زبيدة فزوجه الأولى ، التي كان يؤثرها على كل زوجاته وسراريه وجواريه ، وهي أم الأمين ، وكانت ذات رأي وتدبير، فكان الرشيد لا يرى بدا من أن يأخذ بمشورتها ، وأن يطلق يدها في إنشاء القصور وتعمير المساجد وحفر العيون المعروفة باسمها ..

وأما جعفر فكان محببا إلى نفسه غاية الحب ، حتى لقد روى بعض المؤرخين أنهما كانا يدخلان في ثوب واحد ، وهو إن قيل على أنه ضرب من المجاز ، يصور مدى ما كان بينهما من الحب الصادق والود الأكيد

وروى أن جعفر تصرف باسم الرشيد في أمور غاية في الدقة فأقره الرشيد وقبل منه ورضي عنه ، ولم يمنع هذا جعفرا من أن يقع به ما وقع عندما قضى فيه الرشيد بأمره

وتلك شيمة من شمائل الرجل الفذ ، تثبت في وضوح قوة عارضته ؛ ولو كان كما روى عنه من الاسراف في الترف لما استطاع أن يحسم أمره بالقوة والبراعة والحكمة في الوقت المناسب

فإذا أخذ عليه بعد ذلك أمر ، فهو أنه بايع للأمين بولاية العهد والمأمون بخراسان وللقاسم بولاية العهد بعد المأمون .. في عقد واحد ؛ وكان هذا الذي فعل الرشيد بعيد الأثر من بعده، وهذا خطأ من أخطاء العاطفة المتحمسة، والعقل الراغب في حسم الأمور ، الذي يظن أنها تنقاد من بعده وفق سلطانه.. وإرادته

وهو أشبه بما قيل عن رضائه عن صداقة جعفر والعباسة ، وجمعهما في حضرته وإنفاذ أمره بزواجهما ، دون أن يلتقيا كما يلتقي الأزواج ..

فإذا صح مذهبنا إليه من أمر الرشيد الذي عاش حياته مقسما بين الحرب والحج ، ومقاتلة الأعداء والخصوم من الروم، والعلويين، والبرامكة .. ، فلا يمنع هذا الطبع المشبوب بالحماسة والقوة والحيوية ، من أن يرد موارد المتاع بالسمر ومجالس